(القرآنية في نثر أصحاب الإمام علي عليه السلام الخطب الحربية والحفلية انموذجا)

م.د. عاد كامل صابر

جامعة كربلاء/ كلية العلوم الإسلامية

الكلمات المفتاحية: القرآنية، التناص، تداخل النصوص، نثر أصحاب الإمام علي، خطب المحافل.

ملخص البحث

لقد شكّل القرآن الكريم وتعبيره مدوّنة إبداعية ثرّة مكتنزة بأنساق إبداعية متعددة لا تنضب مهما اغتُرف من بؤرها الإبداعية المنضوية تحتَ خطابات أدبية، ولقد سجّلت حضورها في عصر صدر الإسلام، فكانت (القرآنية) بوصفها طرحا جديدا مغايرا من أولى اهتمامات البحث، وقد رغبتُ منذ زمن في تطبيق هذا الطرح النظري على متنٍ إبداعي قديم،فجاءت فكرةَ دراسة الخطب في العصر الإسلامي؛ لأن النثر الإسلامي بشكل عام ؛ يكتنز ببؤر نصيّة تأتت له من تناصه مع نصوص سبقته، فكانت مقاربة تلك الخطب عبر دراسة تطبيقية تتبنّى آليات النظرية التي طرحها الناقد الدكتور مشتاق عباس معن.

المقدّمة

الحمد لله وحده، وصلّى الله على رسوله وعبده، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد : فقد شكّل القرآن الكريم وتعبيره مدوّنة إبداعية ثرّة مكتنزة بأنساق إبداعية متعددة لا تنضب مهما اغتُرف من بؤرها الإبداعية المنضوية تحتَ خطابات أدبية، ولقد سجّلت حضورها في عصر صدر الإسلام، فكانت (القرآنية) بوصفها طرحا جديدا مغايرا من أولى اهتمامات البحث، وقد رغبتُ منذ زمن في تطبيق هذا الطرح النظري على متنٍ إبداعي قديم،فجاءت فكرةَ دراسة الخطب في العصر الإسلامي؛ لأن النثر الإسلامي بشكل عام ؛ يكتنز ببؤر نصيّة تأتت له من تناصه مع نصوص سبقته، فكانت الدراسة دراسة تطبيقية تتبنّى آليات النظرية التي طرحها الناقد الدكتور مشتاق عباس معن، وأُوَظِّفُها في قراءة تلك الخطب .

ووضعتُ على على وفق هذا عنوانا للدراسة وسمته بـ(القرآنية في نثر أصحاب الإمام علي عليه السلام، الخطب الحربية والحفلية انموذجا)، وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن أُقسّمها على تمهيد ومبحثين اختصّ التمهيد بالبعد التنظيري فكانت مهمته التعريف بأبرز مفاصل العنوان وهي : (القرآنية)، وتكفّل المبحثان الأوّل والثاني بالبعد الإجرائي التطبيقي فقارب نصوص الخطب على على وفق أهم آليات نظرية القرآنية

وانتهت الدراسة بخاتمة اشتملت على أهم النتائج المستخلصة منها .

التمهيد

(القرآنية_ قراءة في الأبعاد والمفهوم والمصطلح)

المفهوم هوفكرة مجردة تسبح في الفضاء الأدبي والنقدي ويأتي الناقد ليمسك هذه الفكرة، فيضعها في إطار اصطلاحي يكسبها هوية جديدة تعرف بها بعد أن كانت مجرد فكرة شائعة دون عنوان واحد.

إنّ مفهوم القرآنية فكرة شائعة في الخطاب النقدي الأدبي، يعاني مصطلحها من تعدد التسميات(اقتباس _ تضمين_ تناص قرآني) .

لقد حاول الدكتور مشتاق عباس معن ترسيخ هوية هذه الفكرة ومنحها ثباتا واستقرارا نقديا، ويبقي هذا الإجراء في ميدان المحاولة والطرح المقترح ما لم يحقق نسبة شيوع عالية تمنحه قسطا وافيا من المقبولية، ويتم التواضع والاتفاق على استعماله بوصفه بديلا مصطلحيا يوحد الفكرة تحت مصطلح واحد ينطلق من القرآن ويعود إليه.

إنّ مصطلح القرآنية هو محاولة اصطلاحية طرحت لتضع الخطاب القرآني في فضائه المقدس بوصفه خطابا مانحا، وهو بمثابة الواهب العام الذي لا يمكن ان يتأثر بخطابات غيره؛ اذ إن كل الخطابات الدنيوية البشرية تكون قاصرة أمام هذا الخطاب السماوي الرباني الصادر عن الذات الإلهية العليا.

انه اقتراح مصطلحي يراد له أن يرتقى إلى المصطلح فيأخذ مكانه في المعجم النقدي للخطاب العربي المعاصر بعد أن يحقق خاصية الشيوع التي تمثّل المعيار الأبرز في تثبيت المصطلح وإقراره.

إنّ مصطلح القرآنية يهدف إلى تغليب هيمنة الخطاب القرآني وتقليص الإيحاء بتأثيره في النصوص الأخرى ذات الإنتاج البشري العادي الذي يفهم من مصطلح التناص القرآني، من منطلق أن النص القرآني هو نسيج متكامل ونص منتج في فضاء غيبي خارج إطار الإنتاجية الدنيوية التي تتعرض للنقد والتفكيك ويدخل في إنتاجها منظومة نصوص سابقة بل تكون عبارة عن خليط متجانس من مدونات مضت.

لقد ارتبط مفهوم القرآنية بمصطلحات مجاورة فكان التناص من بين أهم المصطلحات التي اشتركت مع القرآنية في الدلالة العامة فمنذ ان جاءت الحوارية على يد الباحث الروسي ميخائيل باختين كرد على انغلاق النص، والمصطلح وألياته في تغير وتطور، مستمرين، فقد اعتمدت الباحثة البلغارية (جوليا كرستيفا) على أراء وأفكار هذا الباحث وأتت بمصطلح التناص الذي يمثل عندها تقاطع نصوص ووحدات من نصوص في نص أو نصوص أخرى وأصبح النص في منظورها لوحة فسيفسائية من الاقتباسات فكل نص يستقطب ما لا يحصى من النصوص، التي يعيدها عن طريق التحويل، النفي، او الهدم وإعادة البناء([1]).

ولم يعد مفهوم التناص بعد كل ما كتب عنه مجهولا أو غائما([2])، ومن بين أبسط التعريفات التي يمكن تبنيها هنا ما نصه ((التناص في حقيقته مجموعة من اليات الانتاج الكتابي لنص ما، تحصل بصورة واعية أو لا واعيه، بتفاعله مع نصوص سابقة عليه أو متزامنة معه))([3])

وقد توسعت الدراسات حول التناص بعد الانبثاقة الاولى لمفهومه في النقد العربي، كما توسعت مفاهيمه وظهرت مصطلحات بعضها موازية له، أو متفرعة في دراسة جزيئاته منها : التفاعل النصي، البيانات النصية، التعاليق النصي، المناص، والكليات النصية وغيرها([4]).

ولمفهوم التناص في النقد العربي القديم حضور في الدراسات البلاغية والنقدية القديمة، ولكن ليس بالمصطلحات والتقنيات الحديثة له، فقد كانت مصطلحات من قبيل الاقتباس والتضمين والاستشهاد والسرقات والمعارضات والتلميح وغيرها من المفاهيم .

أما في النقد العربي الحديث فقد أفاد النقاد الذين تعرضوا للتناص من النقد الغربي وعلى سبيل المثال فقد أفاد الناقد محمد بنيس من الناقدة جوليا كرستيفيا في نظريته التناص([5])، كما أفاد الدكتور عبد الله من رولان بارت في طرحه عن ظاهرة تداخل النصوص وخلص الى انها ((سمة جوهرية في الثقافة العربية حيث تشكل العوالم الثقافية في ذاكرة الانسان العربي ممتزجة ومتداخلة في تشابك عظيم ومذهل))([6]).

ويمثل التناص آلية من آليات العمل الابداعي الفني والفكري، وتتجلى هذه الآلية بقدرة المبدع على توظيفها في منجره، وقد كون النص القرآني في هذا المجال رافدا لا ينضب منذ أول ايام نزوله الى وقتنا الحاضر، وعدّ التناص مرجعية نصية تعين المتلقي في رسم خلفية النص التي تكشف عن محتواه الدلالي والفني([7]). وعليه فإن النص من دون التناص نص مغلق و((النص المغلق نص بدون أفاق))([8])

وجاء اجتراحه هذا بعد أن وجد فيه دلالة أو فى من غيره من المصطلحات النقدية المستعملة التي من أبرزها (أثر القرآن)، وكذلك مصطلح (التناص القرآني)، وقد برّر اجتراحه لهذا المصطلح الجديد بقوله : " سعى نقادنا القدامى وجملة من النقاد المحدثين إلى تمييز الأخذ من القرآن الكريم والإفادة منه بمصطلحات تدل عليه، كما اختلف القدامى في تلك الاصطلاحات، فبعضهم ميَّزه بـ (الاقتباس) أو(التضمين) في حين أدخله بعضهم في خانة (السرقة) ... وجرياً على ذاتية التمييز تلك سعينا لاجتراح مصطلح (القرآنية) لتمييز عملية الأخذ والإفادة من القرآن من سواها "[9] .

ورَدَّ بعضَ المصطلحات المستعملة قبله ومنها (التناص القرآني) الذي قال عنه : " يدل مصطلح (التناص) على ثنائية مفاهيمية من جهة (الآخذ والمأخوذ)، الأمر الذي يحدث لبساً عند بعض المتلقين لو أضفناه إلى القرآن، إذ يدلل على أن المأخوذ هو القرآن، كما يصح أن يكون الآخذ أيضاً، ولاستحالة الاتفاق مع الفرض الثاني، أعرضنا عن هذا الاصطلاح، وأن نستبدل به مصطلحاً جديداً "[10].

إن ما اجترحه الناقد هو بمثابة طرح اصطلاحي يرغب في أن يصل الى مصاف المصطلحات النقدية التي حازت مكانتها الاصطلاحية بعد ان اجتازت عقبات الوضع المصطلحي التي يُعد (الشيوع) أبرزها، وهذا لا يُكتب للمفهوم المطروح ما لم يَحِزْ على قسطٍ من المقبولية والسيرورة في الأوساط النقدية التي تُسهم باشتغالاتها النقدية – في ميدان الاجراء – إسهاما فاعلا في تحقيق الثبات لهذا المفهوم المطروح، وما دراستنا هذه إلاّ محاولة جادة تنشد هذا المقصد .

المبحث الأوّل

القرآنية في الخطب الحربية

وهذا اللون من الخطب يلقى عادة على مسامع الجند في ميادين القتال ؛ لإثارة حماسهم، وبثّ روح العزيمة بينهم ؛ بما يبعثُ في نفوسهم من استعداد يدفعهم إلى لقاء العدو، وعلى الرغم من كثرة الحروب التي شهدها العصر العبّاسي فإن ما وصل إلينا من خطب هذا اللون قليلة جدا([11]) .

وعلى الرغم من قلّة نماذج هذا النمط من الخطب إلاّ أن الظاهرة البارزة فيما وصلنا من نماذج تتمثّل بانتشار سياق القرآنية في سياقات تلك الخطب ؛ لما لها من أهمية بالغة في تعزيز الأحقية للطرف المحارب ضد العدو، فضلا عن بثّ روح الحماسة والعزم في نفوس المحاربين ودفعهم للقتال؛ نتيجة تذكيرهم بالنسق القرآني الذي يحمل في طياته تأثيرات روحية عظيمة تُسهم إسهاما فاعلا في إنجاح المغزى المطلوب من المعركة، وتدفع الطرف المنتفع منها نحو جادة النصر .

وسيحاول البحث في هذا المبحث التفتيش عن أنماط القرآنية المتجلية في هذا النمط من الخطب عن طريق الكشف عن أهم تقنيات القرآنية المستعملة من لدن الخطباء الذين أنتجوا لنا تلك الخطب الحربية .

وبعد الاستقراء السريع الذي أجراه الباحث لمجمل الخطب الحربية عينة البحث اتّضح أن التقنية المهيمنة على معظم تلك الخطب هي التقنية (القرآنية المباشرة غير المحوَّرة): وهي التي تكون فيها البنية التناصية محافظة على وضعها من دون تعامل لفظي أودلالي مع النص المأخوذ، وتقابل هذه التقنية مع ما عُرف في تراثنا بـ(الاقتباس)؛ إذ نجد أن منشئ الخطاب يستعين بهذا النص أو ذاك

ليدعم نصّه بما استقرّ في الموروث اوالفكر الجمعي من نصوص([12]).

"ووظيفة هذه التقنية المباشرة ؛ أن تُسهّل أمر اكتشاف مرجعية النص دون عسر ولاسيما على أذهان المتلقين ذوي الثقافة المحدودة فضلاً على تهوين عملية فك الشفرة النصية وإجراء المقاربة الدلالية بين النص الجديد (الآخذ) والنص القديم (المأخوذ) لتكون عملية إبلاغ النص واستقباله هينة لينة على المتلقين"([13]) .

1/القرآنيّة المباشرة غير المحوّرة

ويمكن تعريفها بأنها أخذ مباشر من القرآن الكريم من دون أن يحور الآخذ لفظاً أو دلالة منه، وهو ما عرف بـ (الاقتباس المباشر)، يلجأ إليه الباث – في الغالب – ليدعم ما ذهب إليه، وليقرّب ما ابتعد، وليوضح ما أغمض من صوره([14]).

فضلا عن ان احضار النص من دون تحوير او تبديل له دلالة التقديس التي تحيل على المنتج الاول_ الله جل علاه_ فيستحضر المتلقي منتج النص بكل ما يحمله من ثقل عقائدي يجعله متفاعلا روحيلا ومن ثم يؤدي ما يمليه عليه ايمانه.

ومن نماذج هذه التقنية ما قاله ابو الهيثم بن التيهان وهو يخاطب جنده امام الخوارج ؛ إذ نراه يحضهم على الجهاد والاستبسال في قتال العدو، ابتغاء مرضاة الله، وإعلاء كلمة الدين، مستعيناً ببعض الآيات القرآنية التي تعد المجاهدين النصر والثواب العظيم، وغايته في ذلك إذكاء الروح الحماسية في نفوس المجاهدين، وترغيبهم في القتال، ثم ينتقل بعدها إلى تصوير الخوارج وانحراف عقيدتهم، وسعيهم إلى شق عصا المسلمين، ومفارقة الجماعة اذ قال([15]) : ((يا معشر أهل العراق إنه ليس بينكم وبين الفتح في العاجل والجنة في الاجل إلا ساعة من النهار فأرسوا أقدامكم وسووا صفوفكم أعيروا ربكم جماجمكم واستعينوا بالله إلهكم وجاهدوا عدوالله وعدوكم واقتلوهم قتلهم الله وأبادهم واصبروا ((قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128))([16]) ([17]).

ان توظيف النص القرآني بوساطة تقنية(القرآنية المباشرة) ادى دورا مهما اعد بوساطته تشكيل البعد الثيمي الدلالي لنص الخطبة ؛ اذ توافر على علامات ايدلوجية اخروية حركت همم المتلقين السائرين في ضوء منظومة قيمية قائمة على البعد الايدلوجي السماوي الذي شخصه الخطاب القرآني المستدعى من خلال مفدتي (يورثها_ المتقين)، ان

وراثة الارض وفكرة الخلاصة والقدوة هي فكرة مركزية، في المنظومة الثقافية الإسلامية فهي لا شك تحرك همم المتلقي المرتبط بتلك المنظومة.

لقد وظف الخطيب هنا الاية القرآنية الكريمة توظيفا مباشرا ويوجهها لتخدم غرضه الرئيس من الاستشهاد والمتمثّل في حثّ الجند على القتال بإقناعهم إنّ الطرف الآخر (العدو) هوخارج عن الدين، وأنّهم هم من يمثلون الدين، ويحملون رسالة الله في الأرض؛ لذلك نجح الخطيب في زيادة قوّة الرابط بين الجند وخالقهم حين جعلهم أنصارا لله في دينه ضد القوى الخارجة عن الدين وقد شكّلت تقنية (القرآنية المباشرة غير المحوّرة) ظاهرة لافتة للنظر في معظم سياقات الخطب الحربية لاسيما في خواتيم الخطب ؛ فقد كان معظم الخطباء يُنهون خطبهم بآيات من الذكر الحكيم([18]) ؛ لأنّها خير خواتيم يُختم بها لتقوية المقدمات التي بدئوا بها الخطبة ؛ فهي وسائل مساعدة تُسهم في إذكاء روح الحماس عند الجند، فضلا عمّا تمتلكه من قوّة إقناع بوصفها مصدر تشريع ربّاني صادر من الأعلى إلى الأدنى، نرى أن خطباء الخطب الحربية نجحوا في بناء خطبهم على هذا النحو؛ لأنّ إنهاء النص بنصٍّ قدسيٍّ له منزلته الخاصة عند المخاطبين بوساطة تقنية القرآنية من شأنه أن يُلزم الطرف المخاطب، ويستميله.

لقد افاد استدعاء النص القرآني بوساطة و من ذلك قول الأشتر النخعي الذي خطب الناس بقناصرين وهو يومئذ على فرس أدهم فقال: ((الحمد لله الذي خلق السموات العلى (الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الأرض) وما بينهما وما تحت الثرى أحمده على حسن البلاء وتظاهر النعماء حمدا كثيرا بكرة وأصيلا من هداه الله فقد اهتدى ومن يضلل فقد غوى أرسل محمدا بالصواب والهدى فأظهره على الدين كله ولو كره المشركون وآله ثم قد كان مما قضى الله سبحانه وقدر أن ساقتنا المقادير إلى أهل هذه البلدة من الأرض فلفت بيننا وبين عدوالله وعدونا فنحن بحمد الله ونعمه ومنه وفضله قريرة أعيننا طيبة أنفسنا نرجوبقتالهم حسن الثواب والأمن من العقاب معنا ابن عم نبينا وسيف من سيوف الله علي بن أبي طالب صلى مع رسول الله لم يسبقه إلى الصلاة ذكر حتى كان شيخا لم يكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة ولاسقطة فقيه في دين الله تعالى عالم بحدود الله ذو راي أصيل وصبر جميل وعفاف قديم فاتقوا الله وعليكم بالحزم والجد وأعلموا أنكم على الحق وأن القوم على الباطل إنما تقاتلون معاوية وانتم مع البدريين قريب من مائة بدري سوى من حولكم من أصحاب محمد أكثر ما معكم رايات قد كانت مع رسول الله ومعاوية مع رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله فمن يشك في قتال هؤلاء إلا ميت القلب أنتم على إحدى الحسنيين إما الفتح وإما الشهادة عصمنا الله وإياكم بما عصم به من أطاعه واتقاه وألهمنا وإياكم طاعته وتقواه واستغفر الله لي ولكم))[19]

بهذه الكلمات المثيرة التي تلهب الحماس، وتثير العواطف استطاع الاشتر النخعي أن يحثّ اصحابه على القتال، ويرغبهم فيه، ويهوّن عليهم الأعداء الذين نعتهم: بالنكث والغدر والجهل، وأنّهم قطاع طرق لا يألون جهداً في استلاب ما في أيدي الناس، وفي هذا ما يسوغ قتالهم، ويوجب استئصال شأفتهم، وقد استعان بنصٍّ مباشر من القرآن الكريم وهو قوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)[20] ليوظّفه متّبعا تقنية القرآنية المباشرة ؛ ليكون وقعه أكثر على نفوس المقاتلين؛ لأن القرآن الكريم مصدر من مصادر الحجاج المهمّة التي تستميل الطرف المخاطب وتعمل على إقناعه.

و النسق الاقناعي القرآني نفسه بنى سعيد بن قيس خطبته بقناصرين فقال: ((الحمد لله الذى هدانا لدينه وأورثنا كتابه وامتن علينا بنبيه فجعله رحمة للعالمين وسيد المرسلين وقائد المؤمنين وختاما للنبيين وحجة الله العظيم على الماضين والغابرين ثم كان مما قضى الله وقدره وله الحمد على ما أحببنا وكرهنا أن ضمنا وعدونا بقناصرين فلا يجمل بنا اليوم الحياص وليس هذا بأوان انصرا (ولات حين مناص) وقد خصنا الله بمنه برحمة لا نستطيع أداء شكرها ولا نقدر قدرها إن أصحاب محمد وآله الأخيار معنا وفي حيزنا فوالله الذي هو بالعباد بصير أن لو كان قائدنا رجلا مخدوعا إلا أن معنا من البدريين سبعين رجلا لكان ينبغي لنا أن تحسن بصائرنا وتطيب أنفسنا فكيف وإنما رئيسنا ابن عم نبينا بدري صدق صلى صغيرا وجاهد مع نبيكم كثيرا ومعاوية طليق من وثاق الأسارى إلا أنه أخوجفاة فأوردهم النار وأورثهم العار والله محل بهم الذل والصغار ألا إنكم ستلقون عدوكم غدا فعليكم بتقوى الله من الجد والحزم والصدق والصبر فإن الله مع الصابرين ألا إنكم تفوزون بقتلهم ويشقون بقتلكم والله لا يقتل رجل منكم رجلا منهم إلا أدخل الله القاتل جنات عدن وأدخل المقتول نارا تلظى لا تفتر عنهم وهم فيها مبلسون عصمنا الله وإياكم بما عصم به أولياءه وجعلنا وإياكم ممن أطاعه واتقاه واستغفر الله العظيم لي ولكم وللمؤمنين))[21]

ويبدو استحضار الخطيب لآيات القرآن الكريم قد اخذ مجالاً واسعاً في هذه الخطب اذ لا تكاد تخلوخطبة الا وتجد اية اومجموعة ايات قرآنية تتناص مع نص اخر، ان استدعاء النصوص القرآنية وتجسديها في خطبهم قد جاء نتيجة لما يمثله النص القرآني من اكتناز وثراء وعطاء متجدد، فضلا عن تعلق ثقافه الخطيب به تأثراً وفهماً .

ان استعمال الخطيب للآية القرآنية((كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ))([22]) في سياق جديد قد أضفت على النص دلالة تتماشى مع جو السياق العام للخطبة فالخطيب أراد التأكيد على ان الندم لا ينفع المتخاذلين عن نصرة الإمام علي عليه السلام.

أن هذا النمط في الأعم الأغلب يتم على على وفق رؤيةٍ يقصدها الخطيب، فيدخل البنيه التعبيرية الى فضائه النصي، وإدخالها في حيز مكاني يسمح بإنشاء علاقة مع متتالياته النصية، وقد تردد هذا النمط من التوظيف القرآني لدى خطباء عصر صدر الاسلام بنسبة عالية في نصوصهم المركزية، ويتضح من الكم الهائل للقرآن الكري المبثوث في اغلب تلك الخطب([23])

ومن نماذج الخطب المبنية على القرآنية غير المباشرة خطبة زيد بن الحصين التي قال فيها:((الحمد لله حتى يرضى ولا إله إلا الله ربنا أما بعد فوالله إن كنا في شك في قتال من خالفنا ولا تصلح لنا النية في قتالهم حتى نستديمهم ونستأنيهم فما الأعمال إلا تباب ولا السعي إلا في ضلال والله تعالى يقول ((وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ))[24] .

اذ جاء استدعاؤه للنص القرآني ملائما لسياق الخطبة التي هي في مقام الحمد والشكر على ما انعم الله من الهداية على الطريق القويم الذي سلكوه، وقد استدعى الخطيب رمز العظمة والجلالة (الله) في متن الخطبة مما اضفى على جو الخطبة العام نسقا قدسيا يؤثر في المتلقي تاثيرا قويا.

المبحث الثاني

القرآنية في الخطب الحفلية والدينية

(المحافل والمناسبات الدينية)

"ويراد بها الخطب التي تلقى في المواسم الكبار، والمحافل العظام، وفي مجالس الخلفاء والملوك والأمراء ، وفي الأندية العامة أو الخاصة، لغرضٍ من الأغراض التي تتعلق بالحياة ومظاهرها الاجتماعية. وإذا كانت هذه الخطب تعبر عن الظواهر الاجتماعية وما يتعلّق بأحوال المجتمع فإنّها لا تقتصر على موضوعٍ واحد، فقد تعددت مضامينها تبعاً للظروف والمناسبات الداعية إليها"([25])، فدخلت ضمنها، خطب الوفود، وخطب الجُمَع، وخطب الأعياد وما إلى ذلك .

ومثلما استعان خطباء الخطب الحربية بنصوصٍ من القرآن الكريم، ووظفوها في نصوص خطبهم؛ لتحقيق أغراضهم المتوخاة من الخطاب ؛ فكذلك نجد أن خطباء هذا النمط من الخطب قد ساروا على المنوال نفسه، فوظّفوا آياتٍ من الذكر الحكيم تعضيدا لطروحاتهم التي طرحوها في خطبهم، وتقوية لهيكلية الخطاب لديهم ؛ لاستمالة المخاطبين، وتوجيه الخطاب وجهةً إقناعية مقدّسة لها تأثيرات روحانية خاصة .

وقد شاعت تقنية (القرآنية المباشرة غير المحوّرة) في هذا النمط من الخطب أكثر من غيرها من التقنيات الأخرى حتّى شكّلت ظاهرة مثلما كانت في الخطب الحربية ؛ ولعلّ مردّ ذلك يعود إلى امرين أولها: ان الخطيب كان على وعي تام حين اورد النص القرآني من دون تحوير وتغيير ؛ لان قدسيته وفضاءه الايدلوجي يكون اكثر تأثيرا مما اذا كان محورا والاخر: ان معظم هذه الخطب ارتجالية قيلت في ظرف خاص تحكمه المعارك الحربية وظيفتها الاساسية الايصال والاقناع؛ لذلك نجد ان نسبة البعد الجمالي فيها منخفض؛ لانها تهدف الى الايصال المباشر لتحقيق الاهداف المرجوة منها والمتمثلة بالتعبئة واذكاء روح الحماسة لدى الجند– ؛ لأنّ الخطاب إقناعي مباشر موجّه لطبقات مختلفة من الناس، ولا تمثّل الخطب خطابات فنيّة خيالية شاعرية يشتغل أصحابها على تقنيات فنيّة مثلما في الشعر والنثر الفنّي ؛ لذا لا نعثر على التقنية الأخرى للقرآنية التي تسمّى بـ(القرآنية غير المباشرة المحوَّرة) والتي تكون فيها السلطة المنتجة للنصوص مناطة بالمبدع الجديد، أما النص القديم فمغيب عن المتلقي غيابا قد يُفقده حق الملكية الابداعية التي ورثها المبدع الجديد ؛ إذ لا تكاد تقف على النص القديم إلاّ على بعض الإشارات التي قد يتضّح منه شيء يسير أويختفي بحسب مقدرة (المبدع الآخذ) ويصعب – في هذه التقنية – على غير القارئ الأنموذجي رصد هذا الأخذ الابداعي([26]) .

فأصحاب الخطب ينجزون خطبهم في ظروف آنية تنبع من الحاجة، وينطلقون فيها من الغرض الرئيس المتوخى من إنجازها، فهم لا يأخذون وقتا طويلا في استدعاء النصوص، وإعادة هيكلتها بتذويبها داخل نص خطبهم، وإنتاجها إنتاجا فنيّا جديدا مثلما يفعل الشعراء، بل يأتون بها مباشرة دون رتوش ؛ لتحقيق غاياتهم المرجوة من خطابهم .

ولعل خطبة محمد بن أبي بكر المبعوث من لدن علي بن أبي طالب عليه السلام عندما ولاه مصر خير مصداق لذلك اذ قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:((الحمد لله الذي هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق وبصرنا وإياكم كثيرا بما عمي عنه الجاهلون ألا إن أمير المؤمنين ولاني أموركم وعهد إلى ما قد سمعتم وأوصاني بكثير منه مشافهة ولن آلوكم خيرا ما استطعت (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) فإن يكن ما ترون من إمارتي وأعمالي طاعة لله وتقوى فاحمدوا الله عز وجل على ما كان من ذلك فإنه هوالهادي وإن رأيتم عاملا لي عمل غير الحق زائفا فارفعوه إلي وعاتبوني فيه فإني بذلك أسعد وأنتم بذلك جديرون على وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته))([27])

فنلحظ أن الخطيب قد وظّف بعض آيات القرآن الكريم بألفاظها توظيفا مباشرا مستعينا بتقنية (القرآنية المباشرة غير المحوّرة)، فجاءت خطبته عبارة عن نصّ تداخلت معه نصوص قدسية فشكّل فسيفساء روحانية تتماشى مع المقام الذي وجّهت فيه الخطبة، وتراعي مقتضى حال السامع الذي يأتي لخطب الجمع للوعظ وتذكر

الحياة الأخرى، وقد عمل الخطيب على ذلك ونجح في الاستفادة من النص القرآني حين اخذ من القرآن ما يتماشى مع الغرض الخاص بالخطبة الموت، بالاقتباس من قوله تعالى :. ((وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ))([28])

وتاتي خطبة جرير بن عبد الله البجلي مكتنزة بمعاني القرآن وقد القاها حينما بعثه الامام علي عليه السلام إلى معاوية ومعه كتاب يدعوه به إلى بيعته فلما قرأ الكتاب قام جرير فخطب فقال:((الحمد لله المحمود بالعوائد المأمول فيه الزوائد المرتجى منه الثواب المستعان على النوائب أحمده وأستعينه في الأمور التي تحير دونها الألباب وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ((كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ))([29]) وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بعد فترة من الرسل الماضية والقرون الخالية فبلغ الرسالة ونصح للامة وأدى الحق الذي استودعه الله وأمره بأدائه إلى أمته صلى الله عليه وآله من رسول ومبتعث ومنتخب وعلى آله أيها الناس إن أمر عثمان قد أعيا من شهده فكيف بمن غاب عنه وإن الناس بايعوا عليا غير واتر ولا موتور وكان طلحة والزبير ممن بايعاه ثم نكثا بيعته على غير حدث ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن وقد كانت بالبصرة أمس روعة ملمة إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس وقد بايعت الأمة عليا ولوملكنا والله الأمور لم نختر لها غيره))([30]).

فقد اعتمد الخطيب على تقنية القرآنية المباشرة واقتبس اية قرآنية تصبّ في غرض خطبته التي وجهها للمستمعين في مقام الحاكم الظالم بعد ان بعثه الامام علي عليه السلام اليه، فجاء بالنصوص القرآنية مناسبة للمقام، وهو لم يغيّر فيها أو يذوبها في بنية نصه الشكلية وجاء بها من دون تحوير ليوظفها في سياق نصه الدلالي بعد تحويرها، بل جاء بها كما هي ليثبتها في نصّه ؛ في محاولة منه لاستمالة أسماع المتلقين، وتذكيرهم بأوامر الله وقد اتبع الية الحجاج فكانت مع القرآن الكريم من اكثر اليات الاقناع ومثل هذا الأسلوب المباشر نجده عند معظم الخطباء الذين اختصت خطبهم بأغراض حفلية أو مناسبات دينية فمعظمهم يأتون بآيات قرآنية مباشرة غير محوّرة ويستشهدون بها في نصوص خطبهم للتبرّك بكتاب الله العزيز أولاً، ثمّ لبيان بعدهم الثقافي، وخلفيتهم المعرفية، فضلا عن كونها تدخل في أسلوب الحجاج الإقناعي الذي يُعد من أبرز الأساليب في فن الخطب .

لابد من الإشارة إلى ان هناك نوعاً آخر من القرآنية في هذه الخطب لكنها لم تشكل ظاهرة لان ورودها في تلك الخطب كان ضعيفا وهي القرآنية المباشرة المحوّرة /القرآنيّة الإشاريّة وفي هذا النّمط يقوم الباث بالتّناص مع القرآن عبر الإشارة إلى مورد من آياته دون ذكر النّص القرآني معتمدا في ذلك على ثقافة المتلقي القرآنيّة في تكامل دلالات النّص الشّعري مشركا المتلقي في تلك الدّلالات،فـ((يعمد الباث إلى شخصيات،أو أحداث قرآنيّة، ويضعها في شعره مكتفيا بذكر مؤشرات سريعة ودالّة على النّص الغائب عن طريق الإشارة المركّزة؛بحيث

تغدوهذه الإشارة بمثابة الاستحضار الكامل لتلك النّصوص، من دون أن يكون هناك حضور لفظي كامل))[31]، وهو من آليات الإيجاز في النّص المستدعى[32].

ومن ذلك خطبة ظبيان بن حداد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وفد ظبيان بن حداد فى سراة مذحج على النبى صلى الله عليه وسلم فقال بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم والثناء على الله عز وجل بما هو أهله ((الحمد لله الذى صدع الأرض بالنبات وفتق السماء بالرجع نحن قوم من سراة مذحج من يحابر بن مالك ثم قال فتوقلت بنا القلاص من أعالى الحوف ورؤوس الهضاب يرفعها عرر الربا ويخفضها بطنان الرقاق وتلحقها دياحى الدجى وسروات الطائف كانت لبنى مهلائيل بن قينان غرسوا وديانه وذللوا خشانة ورعوا قربانه ثم ذكر نوحا حين خرج من السفينة بمن معه قال فكان أكثر بنيه بنات وأسرعهم نباتا عاد وثمود فرماهم الله بالدمالق وأهلكهم بالصواعق وكانت بنوهانئ من ثمود تسكن الطائف وهم الذين خطوا مشاربها وأتوا جداولها وأحيوا غراسها ورفعوا عريشها ثم قال وإن حمير ملكوا معاقل الأرض وقرارها وكهول الناس وأغمارها ورءوس الملوك وعرارها فكان لهم البيضاء والسوداء وفارس الحمراء والجزية الصفراء فبطروا النعم واستحقوا النقم فضرب الله بعضهم ببعض وإن قبائل من الأزد نزلوا على عهد عمروبن عامر ففتحوا فيها الشرائع وبنوا فيها المصانع واتخذوا الدسائع ثم ترامت مذحج بأسنتها وتنزت بأعنتها فغلب العزيز أذلها وقتل الكثير أقلها وكان بنوعمرو ابن خالد بن جذيمة يخبطون عضيدها ويأكلون حصيدها ويرشحون حصيدها))([33])

نهض نص الخطبة على شّخصيات قرآنيّة والشّخصيات الّتي ورد ذكرها في القرآن الكريم سواء كانت إيجابية أم سلبية من جهة الرّؤية القرآنيّة لها،وتشمل الرّسل،والأنبياء،والصّالحين والشّخصيات الأخرى،ولما تحمله تلك الشّخصيات من دلالات شكّلت مخزونا ثقافيا في نفوس المسلمين حاول الخطيب أن يوظّف الطّاقات الّتي تحملها تلك الشّخصيات في خطبته ؛ ليزيد من التّكثيف والإيحاء عبرها دون الحاجة إلى سرد الحوادث،والقصص المرتبطة بها،أو الاكتفاء بجانب من جوانب الشّخصية المستدعاة مع ما يتناسب والسّياق الّذي ترد فيه، ويمكن أن نصنّف استدعاءات الشّاعر للشّخصيات القرآنية بؤرة التّحوير في النّص القرآني المستدعى في انزياح الدّلالة من النّص القرآني.

وهناك من الخطباء من يكتفي بالإشارة إلى القرآن بمجمله أو سورة قرآنيّة من وفي هذا اللون من القرآنيّة يعمد الباث إلى الأخذ من القرآن الكريم مع التّحوير سواء لفظيا أم دلاليا[34].

ومن ذلك قول الاشتر النخعي:((عضوا على النواجذ من الأضراس واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا عليهم شدة قوم موتورين ثأرا بآبائهم وإخوانهم خناقا على عدوهم قد وطنوا على الموت أنفسهم كيلا يسبقوا بوتر ولا يلحقوا

في الدنيا عارا وايم الله ما وتر قوم قط بشيء أشد عليهم من أن يوتروا دينهم وإن هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلا عن دينكم ليميتوا السنة ويحيوا البدعة ويعيدوكم في ضلالة قد أخرجكم الله عز وجل منها بحسن البصيرة فطيبوا عباد الله أنفسا بدمائكم دون دينكم فإن ثوابكم على الله (جنات النعيم)([35]) وإن الفرار من الزحف فيه السلب للعز والغلبة على الفئ وذل المحيا والممات وعار الدنيا والآخرة (وسخط الله)([36]) وأليم عقابه))([37])

الخاتمة:

بعد أن انتهى البحث إلى خواتيمه لا بدّ لنا من أن نسجّل أبرز النتائج التي أفضت إليها مفاصله وبالنقاط الآتي ذكرها :

1. تبيّن ـ على المستوى التنظيري ـ أن مصطلح (القرآنية) ـ الذي طرحه الناقد الدكتور مشتاق عبّاس معن ـ هو مصطلح جديد، وجاء اقتراحه له بعد أن وجد فيه دلالة أوفى من غيره من المصطلحات النقدية المستعملة التي من أبرزها (أثر القرآن)، وكذلك مصطلح (التناص القرآني) .
2. إن ما اجترحه الناقد هوبمثابة طرح اصطلاحي يرغب في أن يدخل في حقل المشاع في المصطلحات النقدية التي حازت مكانتها الاصطلاحية بعد ان اجتازت عقبات الوضع المصطلحي التي يُعد (الشيوع) أبرزها، وهذا لا يُكتب للمفهوم المطروح ما لم يَحِزْ على قسطٍ من المقبولية والسيرورة في الأوساط النقدية التي تُسهم باشتغالاتها النقدية – في ميدان الاجراء – إسهاما فاعلا في تحقيق الثبات لهذا المفهوم المطروح، وما دراستنا هذه إلاّ محاولة جادة تنشد هذا المقصد .
3. اتّضح ـ على المستوى الإجرائي ـ أن نصوص الخطب – حيّز البحث – تختزن اقتباسات قرآنية متعددة تتعاون على خلق شبكة الدلالات العامة في نصوصهما وتطورها.
4. وفي إطار الموازنة بين نمطي الخطب كانت الخطب الحربية أوفر حظّا من النمط الآخر في قوّة مناسبة القرآنية للنص الأصل بحكم نوعية الخطبة الحربية وغرضها الذي يتطلّب آيات قرآنية ذات تأثيرات شديدة تشدّ من عزم المقاتلين، ومن جانب آخر كان حضور القرآنية فيها أكثر من النمط الآخر .
5. اتّبع خطباء العصر الإسلامي تقنية (القرآنية المباشرة غير المحوّرة) ولم يتّبعوا التقنية الأخرى (المحوّرة)، ولعلّ مرد ذلك يعود إلى خصوصية الخطبة التي تكون نسبة الشاعرية فيها أقل بكثير من الخطاب الشعري.
6. يتّضح من كل ما تقدّم أن النسق القرآني كان من بين أهم الأنساق النصيّة التي تتناص معها الخطب في العصر الإسلامي، فتكاد لا تخلوخطبة – بحسب استقراء الباحث – من تجليات قرآنية تأتي لتأدية أغراض مضمونية بحتة تتصّل بتقوية الجانب الحجاجي الذي يقوم عليه الخطاب النصّي في الخطبة .
7. لم تشكل القرآنية المحورة الاشارية حضورا لافتا في نصوص الخطباء.

الهوامش :

([1]) ينظر: التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر عصام حفظ الله واصل: 15.

([2]) أبرز ما كتب في هذا المضمار: استراتيجية التناص، د. محمد مفتاح، التناص في الشعر العراقي الحديث، أحمد فاهم.

([3]) ماهية التناص، عبد الستار جبر الاسدي، مجلة الرافد، ع، 2001: 14.

([4]) ينظر: تجليات التناص في الشعر العربي، محمد عزام: 30- 31.

([5]) ينظر: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب (مقاربة بنيوية تكوينية) محمد بنيس: 251.

([6]) ثقافة الأسئلة (مقالات في النقد والنظرية دراسة نقدية) د. عبد الله الغذامي: 119.

([7]) ينظر: المدونة الرقمية الشعرية، د. حسن عبد الغني الأسدي: 87.

([8]) الخطاب النقدي العربي المعاصر، د. هيام عبد زيد: 473.

([9]) . تأصيل النص : 169 .

([10]) . المرجع نفسه : 169 .

([11]) الخطابة العربية في العصر العباسي الأول – دراسة موضوعية – فنية / مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية / العددان 3 – 4 / المجلد 7 / 102 .

([12]) تأصيل النص : 182 .

([13]) المرجع نفسه : 182 .

([14]) الطفيّات – المقولة والإجراء النقدي / 172 .

([15]) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، عصر صدر الاسلام : 353.

([16]) سورة الاعراف،اية:128

([17]) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، عصر صدر الاسلام:353.

([18]) ينظر على سبيل المثال : كتاب (جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهية) / 353/ 340 ، و 326 .

([19]) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة،عصر صدر الاسلام:359

([20]) سورة طه / الآية 5.

([21])جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، عصر صدر الاسلام:354

([22]) سورة ص:الاية/3

([23]) ينظر على سبيل المثال الصفحات : 354., 355, 366.

([24]) سورة الضحى الاية/11

([25]) الخطابة العربية في العصر العباسي الأول – دراسة موضوعية – فنية / 96 .

([26]) ينظر : تأصيل النص : 183 .

([27]) جمهرة خطب العرب في عصورها العربية الزاهرة :398.

([28]) هود:الاية:88

([29]) القصص:الاية/88

([30]) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة،عصر صدر الاسلام:308

([31]) –مقتبسات قرآنية في شعر الدكتور أحمد الوائلي(ره):128.

([32]) –ينظر:التّناص في شعر الرواد:94

([33]) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة،عصر صدر الاسلام:167

([34]) –ينظر:القرآنية في علويات الشيخ صالح الكوّاز الحلي:292 .

([35]) لقمان:الاية:8

([36]) المائدة:80.

([37]) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة،عصر صدر الاسلام:315.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم .
2. تأصيل النص "قراءة في أيدلوجيا التناص" / د. مشتاق عباس معن / ط1، مركز عبادي للدراسات والنشر/ صنعاء – الجمهورية اليمنية / 2003م .
3. التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر–أحمد العواضي انموذجا–،عصام حفظ الله حسين واصل،دار غيداء للنشر والتوزيع،(د.م)،ط1 ،(1431 هـ–2011 م.
4. تحليل الخطاب الشعري(استراتيجية التناص)،د.محمد مفتاح،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء–المغرب،ط4 ،2005 م .
5. جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة / احمد زكي صفوت / ط1/ المكتبة العلمية/ بيروت – لبنان / د. ت .
6. الخطابة العربية في العصر العباسي الأول – دراسة موضوعية – فنية / الدكتور حسين عبد العالي اللهيبي/ مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية / العددان 3 – 4 / المجلد 7 / 2008م .

7.الطفيّات – المقولة والإجراء النقدي / د. علي كاظم المصلاوي / إصدار وحدة الدراسات التخصصية / قسم الشؤون الفكرية / العتبة الحسينية المقدسة/ طبع على مطابع: مؤسسة الاعلمي للمطبوعات / بيروت – لبنان / 1433هـ – 2012م. 6

8. ماهية التناص، عبد الستار جبر الاسدي، مجلة الرافد، ع، 2001
9. النص الغائب تجليات التناص في الشعر العربي –دراسة–،محمد عزَّام، منشورات إتحاد الكتاب العرب،دمشق،2001 م .